**المحاضرة الأولى في مادة السيميولوجيا**

طلبة السنة الثالثة ليسانس

شعبة الأنثربولوجيا

شعبة الإعلام والاتصال

يعد كتاب تاريخ وسوسيولوجيا اللباس/ بعض الملاحظاتالمنهجية[[1]](#footnote-2)(43) ، استدارة حاسمة في البحث السيميولوجي والأنثربولوجي المعاصر .وسيلاحظ القارئ أن التباشير الأولى للبحث حول اللباس ظهرت عند رولان بارث في 1957 ولا يمكن أن نفهم، وندرك الأطر المنهجية لإنجازاته السيميولوجية إلا إذا وضعناها في السياق التطوري العام لبحوثه، وربطناها بأول إنجاز حول اللباس. وعلى هذا الأساس، يعد تاريخ وسوسيولوجيا اللباس نقطة تحول هامة تستمد قيمتها الدلالية والعلمية من تحركها في اتجاهين. يندرج الاتجاه الأول ضمن إطار دياكروني يؤرخ فيه رولان بارث لتاريخ اللباس. ولا غرابةإذا ألمح بارث إلى البحوث الأولى، ومن ضمنها **الموضة في 1830** للأستاذ گريماس، التي لفتت انتباه الدارسين إلى أهميتها. أما الاتجاه الثاني، فإنه يثبت الأرضية السانكرونية كقاعدة أساسية لدراسة اللباس ليس كعنصر مفصول عن العناصر المحيطة به، بل كنظام قائم بذاته ترتبط عناصره بمجموعة من المعايير الجماعية. في هذا السياق يعترف بارث، في معرض حديثه عن اللسانيات التي لم تتوصل إلى توضيح العلاقات بين السانكروني والدياكروني، بأن **علم اللباس**[[2]](#footnote-3)(44)science du costume لم يتشكل بعد. ربما لعدم اكتمال الرؤية، لم يتوسع بارث في هذا الاقتراح،ولم يضبط حدود علم اللباس، ولا القوانين التي ستحكمه، ولا طبيعة العلاقة التي ستربطه باللسانيات أو السيميوبوجيا.

يقر بارث في بداية التحليلبأن البحوث العلمية حول اللباس ظهرت في حدود 1860 على يد العلماء وأمناء الأرشيف على غرار كيشرات، وديماي، وإنليرتQuicherat, Demay ou Enlart، وتتوخى دراساتهم معالجة اللباس كمجموعة من القطع، والنظر إلى القطعة الثيابية بوصفها حدثا تاريخيا يستدعي تحديد حقبة ظهوره،وملابسات نشأته. ويرى أن تاريخ اللباس لم يستفد من التجديد الذي مس الدراسات التاريخية المنجزة منذ ثلاثين سنة،وتحديدا البعد الاقتصادي والاجتماعي للتاريخ، ولم يفد أيضا من العلاقة بين اللباس والوقائع الهووية كما حددها لوسيان فيبرLucien Febvre، ولا من المنحى الإيديولوجي للماضي كما أقره المؤرخون الماركسيون. وأفضت به هذه النقود إلى القولإن هذه الدراسات تفتقر إلى المنظور المؤسساتي للباس، ولم تعن في مسارها بتحديد النظام الثيابي والمجموعة الأكسيولوجية التي تشكله(إكراهات، ممنوعات، تسامح، انحراف...)، وإن المشكل الأخطر في كل الدراسات التاريخية حول اللباس هو الخلط العاري من أي حذر منهجي بين المعايير الداخلية والمعايير الخارجية[[3]](#footnote-4)(45)،وتصور الثوب، على نحو مستديم، باعتباره دالا خاصا لمدلول عام خارجي عنه(حقبة، بلد، طبقة اجتماعية). ويؤكد، من جهة أخرى، على الأهمية التي أولتها الدراسات الإنجلوساكسونية حول سيكولوجية الثوب للحوافز التي تقف وراء الاكتساء وذلك بالاعتماد على ثلاثة عوامل: الحماية والحياء والتزيين. ونبه إلى أن العلاقة بين التزيين والحماية تعد من المرتكزات الأساسية التي أفضت ليس فقط إلى الاعتقاد بأن الباعث على التزيين هو الأهم، بل الميل إلى تخصيص مفردة الثوب لوقائع الحماية، ومفردة اللباس لوقائع الزينة. من هذا المنظور، يعبر بارث عن رفضه لنوع من الدراسات ينهض على الوهم"السيكولوجي"،الذي يعتري كل المناقشات حول اللباس. فما يهم الباحث ليس الانتقال(الوهمي) من الحماية إلى الزينة، بل نزوع كل غطاء جسدي إلى الاندماج في نظام شكلي منظم معياري يكرسه المجتمع. فالجنود الرومان الذين ألقوا على أكتافهم بطانيات للاحتماء من المطر كانوا يؤدون فعلا حمائيا خالصا[[4]](#footnote-5)(46). ومحصلة هذا التحليل القائم على الاستدلال المنطقي نتيجة مفادها أن استحواذ المجتمع على شكل أو استعمال معين هو الذي يؤسس اللباس، وليس مقدار ما يؤديه من منفعة أو تزيين. أن تضع المرأة زهرة على شعرها أو أذنها فسيظل سلوكها فعلا تزيينيا مادامت الفئة الاجتماعية لم تقننه. وهذا يدعو إلى الإقرار بأن الأعمال المخصصة للباس سواء كانت سيكولوجية أو تاريخية لم تطرحه بالمطلق كنظام، يعني كبنية ليسلعناصرها أبدا قيمة خاصة. وتدل هذه البنية فقط بارتباطها بمجموعة من المعايير الجماعية. فمسألة النظام عند بارث تستمد وجودها من الرؤية اللسانية السوسيرية ولا تفارقها لأنه اقتنع بأهميتها في معالجة اللباس. ومن منطلقات هذه الرؤية عالج التداعيات المنهجية للنماذج السوسيرية في دراسة اللباس وتحديدا الثنائية لسان/كلام المنضوية تحت اللغة باعتبارها مصطلحا نوعيا يضم الاثنين معا. فاللغة البشرية التي يمكن أن تدرس وفق مظهرين: اللسان والكلام، تعد مؤسسة اجتماعية مستقلة عن الفرد، فهي مخزون يمتح منه كلامه ونظام مفترض لا يتحين إلا في الكلام ومن خلاله، وفعل فردي أيضا. وهذه التخريجات تصدق أيضا على الثوب. فاللباس على غرار اللسان حقيقة مؤسساتية واجتماعية بامتياز، مستقلة عن الفرد وهي بمثابة المخزون الذي يمتح منه الفرد ملبسه؛ إنها حقيقة فردية.أما الاكتساء الذي يكافئ الكلام عند سوسير فإنه الفعل الذي يحين الفرد من خلاله اللباس. فثنائية اللباس والاكتساء على غرار اللسان والكلام تشكل كلا نوعيا يخصص له بارث تسمية الثوب . ويلاحظ بارث أن العلاقة بين اللباس والاكتساء علاقة دلالية: فدلالة الثوب تتنامى بالانتقال من الاكتساء إلى اللباس: يعبر الاكتساء أكثر مما يُشعِر، أما اللباس المتسمبحمولة دلالية قوية، فإنه يشكل العلاقة الفكرية والإشعارية بين حامل اللباس وجماعته[[5]](#footnote-6)(47).

بعد الإحاطة بهذه التوضيحات المهمة، ينتقل بارث إلى ثنائية سوسيرية أخرى: الدياكرونية والسانكرونية، ويؤكد على ضرورة التمييز بينهما لمعالجة الباس. والمشكلة الرئيسة هي الإدراك الجدلي للعلاقة بين النظام والسيرورة. ويحيل في هذا السياق إلى جورج داروين الذي أقام توازيا بين النمو البيولوجي والنمو الثيابي. ولكن هذا غير كاف، في رأي بارث، مادام النظام لم يحدد بالمعايير الداخلية التي لم تقف عند حدودها الدراسات التاريخية للباس. وحتى اللسانيات من جهتها لم تتوصل إلى تجلية العلاقة بين السانكرونية والدياكرونية. ويكتفي بارث باقتراح اثنين من الاحتياطات المنهجية البنائية والتاريخية بالارتكاز على اللسانيات. فهو يشدد، أولا، على ضرورة قبول تخفيف النظام بالاعتماد على التفكير في البنيات من منطلقاتالميولالتي قد تكتسي أهمية أكبر من التأمل فيها على أساس التوازن الصارم، فاللباس يحيا حياة متناغمة مع بيئته التاريخية أكثر من اللسان؛ تناغم يتجلى في الحقب التاريخية العنيفة (حروب، هجرات، ثورات) التي يمكن أن تقوض بسرعة النظام، ولكن، خلافا لما يجري في اللغة، فإن إعادة ترميمه تكون أسرع. ويستحسن، ثانيا، ألا يعاد إدماج، في مآل الأشكال الثيابية، الحتميات الخارجية إلا بعد إحصاء كل العوامل الداخلية التي تهيء، في صلب النظام نفسه، شطرا من تطوره[[6]](#footnote-7)(48).

وبالانتقال إلى ثنائية الدال والمدلول تكون رؤية بارث قد اكتملت بتوافقها توافقا تاما مع رؤية سوسير يظهر في تبنيه إقرار سوسير القاضي بإنزالعلم الدلالات منزلةالقسم من السيميولوجيا. ويستنتج أن هذا الإقرار يصدق أيضا على اللباس الذي لا يمكن أن يختزل إلى الوظيفة الحامية أو التزيينية، ويعد حقلا سيميولوجيا بامتيازووظيفته الدالة هي التي تؤسس الثوب كواقعة اجتماعية[[7]](#footnote-8)(49). وبالاستناد إلى ملاحظاتمييارسون M.I.Meyerson حول العلامة، يميز بارث في الثوب بين الوقائع القرينية والوقائع الدالة[[8]](#footnote-9)(50):

أ) الوقائع القرينية: تجري القرينة خارج أي قصدية أو سلوك موجه. ويلاحظ بارث أن عددا من الكتاب الأنجلوساكسونيين عالجوا الوقائع القرينية الأكثر أهمية باعتبارها قرينة مقترنة بالجواني. وتواصلت بحوثهم في اتجاهين: اتجاه سيكولوجي صرف(الولايات المتحدة) يخص الاختيارات والحوافز: تمت محاولة توضيح تراتبية الحوافز في الاختيارات الثيابية بواسطة الاستبيانات والروائز.

أما الاتجاه الثاني لهذه البحوث حول سيكولوجية الثوب مستوحى من التحليل النفسي بالمعنى الواسع للمصطلح.ويرى بارث أن دراسات من هذا النوعيمكن أن تكون، خارج إطار التحليل النفسي، مثمرة أكثر لما يتعلق الأمر بوصف ما يمكن أن يسمى بتعابير الشخصية. ويلاحظ أن مفهوم القرينة مبهم في تفسير التحليل النفسي. ويتساءل في هذا السياق عما إذا كان الشكل الثيابي يشكل فعلا قرينة، ويتم خارج أي قصدية. ويلفت بارث الانتباه إلى أن منظور التحليل النفسي يقر دائما بوجود اختيار للباس من جماعة أو اختيار للاكتساء من حامله؛ ولئن كان الثوب هنا يُعطى دائما كموضوع لاستشفار يمكن أن يقوم به القارئ (الجماعة، الأنا الأعلى أو المحلل)،فإنه، في رأي المحلل النفسي، أقرب إلى الدلالة ووقائع التعبير منه إلى القرينة.

ب) وقائع الدلالة أو الإشعار: ألمح بارث إلى إمكانية وجود حدود مترجرجة وغامضة بين الوقائع القرينية ووقائع الإشعار: قد تأتي واقعة إشعارية من واقعة قرينية سابقة؛ فثوب الرياضة الذكوري (ذي الأصل الإنجليزي) يحيل على قرينة تتضمن الرغبة في تحرير الجسد، ثم انفصل عن وظيفته ليتحول إلى لباس من قطعتين يدل على حاجة هي أقرب إلى التكريس منها إلى الشعور. ترتبط دراسة دلالة الظواهر الثيابية،عموما، بشكل وثيق بالعناية التي يحلل بها اللباس كنظام سانكروني. وينتهي بارث من هذا كله إلى أن درجة الإسهام في النظام دالة(خضوع كلي، فروق، انحرافات)، فقيمة النظام لا تدرك إلا على مستوى التمجيدات والاحتجاجات. فالثوب هو في الواقع دال على مدلول واحد أساسي يتمثل في درجة إسهام الحامل (جماعة أو فرد). ويركز بارث في هذا السياق على درجة اندماج الحامل في المجتمع الذي يعيش فيه: أحداث تاريخية عنيفة يمكن أن تلدد(تربك) إيقاعات الموضة وتأتي بأنظمة جديدة، فتغير نظام المشاركة، ولكنها لا تفسر إطلاقا الأشكال الجديدة. كانت ملابس الحداد بيضاء فيما مضى، وهي اليوم سوداء.لا ينفي بارث إمكانية حمل رمزية الألوان قيمة تاريخية.ولكنهيؤكد على أن الواقعة الاجتماعية لا تكمن في لون الحداد الذي يعبر عنها، بل في صيغة المساهمة التي يستلزمها.

يستحيل أن يدرك القارئ التفاصيل الجزئية للمشروع السيميولوجي البارثي دون العودة إلى هذه اللحظة الحاسمة في مساره العلمي الذي يتصدره كتاب ميثولوجيات(1957) حيث يستعمل لأول مرة، فيما يبدو، السيميولوجيا العامة استعمالا موسعا مقترنا برؤية سوسير . ويشدد في هذا الكتاب على أنهلم يتبادر إلى ذهنه أبدا الخروج من هذه السيميولوجيا العامة[[9]](#footnote-10)(54) في أثناء دراسةالوقائع المقترنة بمنازلة في الكاتش، وطبق من المأكولات المطبوخة، ومعرض الفنون التشكيلية. وفي بحثآخر(1957)، وفي إطار نفس الرؤية السوسيرية، يشير بارث إلى أن سوسير افترض علما للدلالات حيث لا يشكل علم الدلالة اللغوي إلا قسما منه،ويذهب إلى أن اللباس الذي لا يمكن أن يختزل إلى وظيفة واقية أو تزيينية يعد حقلا سيميولوجيا بامتياز، وأن وظيفته الدالة هي التي تؤسسه واقعة اجتماعية كلية[[10]](#footnote-11)(55).

وبانتقاله إلى ثنائيات اللسان والكلام[[11]](#footnote-12)(56)، والدياكرونيا والسانكرونيا[[12]](#footnote-13)(57)، والدال والمدلول[[13]](#footnote-14)(58)، تكون رؤية بارث قد اكتملت بتوافقها توافقا تاما مع رؤية سوسير. ويظهر هذا التوافق في تبنيه إقرار سوسير؛ومفاده أن علم الدلالات يحمل تسمية السيميولوجيا حيث ينزلعلم الدلالة اللغويمنزلة القسم منها[[14]](#footnote-15)(59).

**المحاضرة الثانية في مادة السيميولوجيا**

طلبة السنة الثالثة ليسانس

شعبة الأنثربولوجيا

ويمكن أن نسجل بداية تفكير بارث في انفصاله التاريخي عن رؤية سوسير من خلال التقديم الذي وضعه لعدد خاص من مجلة **تبليغات**التي نشرت لأول مرة بحوثا سيميولوجية ومن ضمنها دراسة **مبادئ في علم الأدلة**. وفي هذا الإطار، فإن بعض باحثي مركز دراسات التواصل الجماهيري الذين دفعوا بحوثهم باتجاه التحليل الدلالي، منحت لهم مجلة **تبليغات** فرصة النشر في هذا العدد **"السيميولوجي"**. ومن المفارقات التي تدعو إلى التأمل، والبحث، والتحريات الدقيقة أن التحليل الدلالي في هذه الحقبة شهد حركة غنية وغير عادية، وتحول إلى مركز اهتمام الباحثين لا نلقى له ما يناظره في تاريخ الفكر الأوروبي المعاصر. يلقي گريماس بين سنتي 1963 و1964مجموعة من الدروس حول علم **الدلالة البنيوي** بمعهد هنري بوانكاري، ويصدر بيرنار بوتييه دراسة في **اللسانيات والترجمة الآلية** ويعرض مقترحات منهجية لتحليل المعنى إلى عناصر دنيا، وفي هذه الحقبة أيضا يصدر جان ديبوا بمساهمة گريماس، وموريس كروس، وبيرنار بوتييه، وبيرنار كيمادا، ونيكولا ريويت العدد الأول(1966) من مجلة لغات[[15]](#footnote-16)(60)مخصص للبحوث الدلالية. في إطار هذه الأجواء العلمية العامة، يصدر بارث العدد السيميولوجي ويعلن في المقدمة الافتتاحية عن موقفه من الرؤية السوسيرية.

وقبل أن نتطرق إلى هذه النقطة، وحتى ندرك أبعاد مقترحات بارث المنهجية، يجدر بنا أن نورد في هذا السياق التحديد المثير للجدل الذي وضعه سوسير للسيميولوجيا وطبيعة العلاقة التي تربطها باللسانيات وهذا في معرض حديثه عن اللسان: "إن اللسان نظام من العلامات يعبر عما للإنسان من أفكار، وهو بهذا شيبه بأبجدية الصم البكم، وبالطقوس الرمزية، وبأشكال الآداب، والإشارات العسكرية إلا أنه يعد أرقى هذه الأنظمة جميعها. ومن هنا تأتي إمكانية تصور علم يدرس حياة العلامات في صلب الحياة الاجتماعية، وقد يكون قسما من علم النفس الاجتماعي،وبالتالي من علم النفس العام،وسنسميه بـِ سيميولوجيا(مشتقة من اليونانية sēmeîon بمعنى علامة). وسيمكننا من التعرف على كنه هذه العلامات وعلى القوانين التي تحكمها. وبما أنه لم يوجد بعد، فإننا لا نستطيع التنبؤ بمآله. ولكن له الحق في الوجود، ومكانته محددة سلفا. وليست اللسانيات سوى قسم من هذا العلم العام. ويمكن أن تطبق قوانينه التي سيكشف عنها على اللسانيات. وستجد اللسانيات نفسها مقترنة بميدان محدد المعالم ضمن مجموع الوقائع البشرية"[[16]](#footnote-17)(61).

يوضح بارث في بداية قراءة النص أن السيميولوجيا تتخذ أنظمة العلامات موضوعا لها بقطع النظر عن ماهيتها وحدودها. "فالصور والإيماءات والأصوات النغمية والأشياء ومركبات تلك الماهيات التي نعثر عليها في الطقوس والتشريفات أو المشاهد تشكل(...) على الأقل أنظمة دلالية"[[17]](#footnote-18)(62)ضاربة جذورها في كل مناحي الحياة الاجتماعية. ويسجل بارث بشيء من التشاؤم أن مصطلح السيميولوجيا لا يبعث على الارتياح ليس لأنه مشروع لقي التأييد المستمر، بل لصعوبة تنفيذه ويأتي كل الخطر من برمجة علم لم يتشكل بعد. فالسيميولوجيا لازالت تبحث عن نفسها باتآد. لقد كان يعتقد سوسير أن اللسانيات ليست إلا قسم من العلم العام للعلامات. ولكنه لم يكن متأكدا بالمرة من وجود أنظمة من العلامات ذات سعة معينة تتميز عن اللغة، في الحياة الاجتماعية.[[18]](#footnote-19)(63). وفي هذا السياق، يعترف بارث بأن "السيميولوجيا لم تجد إلى حد الآن ما تعالجه سوى شفرات غير ذات أهميةكقانون المرور؛ إلا أنهبمجرد الانتقال إلى مجموعات لها عمق اجتماعي حقيقي، نلتقي مرة أخرى باللغة.ومما لا مراء فيه أن الأشياء والصور والسلوكات قد تدل وتدل بغزارة، لكن لا يمكن أن تفعل ذلك بكيفية مستقلة إذ أن كل نظام سيميولوجي يمتزج باللغة. فالماهية البصرية مثلا تعضد دلالاتها من خلال اقترانها برسالة لسانية(كالخيالة[أي السينما] والإشهار، والهزليات، والصور الصحفية الخ.)، بحيث يرتبط جزء من الرسالة الإيقونية، على الأقل، بعلاقة حشو أو علاقة إنابة مع نظام اللسان. أما بخصوص مجموعات الأشياء(كاللباس، والطعام)، فهي لا ترقى إلى مستوى الأنظمة إلا بالمرور عبر البديل اللساني الذي يجزئ دوالها(في شكل لوائح مصطلحية)، ويسمي مدلولاتها( في شكل استعمالات أو أسباب)(...) ويبدو لنا في النهاية أن تخيل نظام من الصور والأشياء التي تستطيع مدلولاتها أن تتواجد خارج اللغة أمرا يزداد صعوبة أكثر فأكثر:إن إدراك معنى ماهية ما معناه اللجوء حتما إلى التقطيع الذي يقوم به اللسان : لا يوجد المعنى إلا مسمى، وليس عالم المدلولات بشيء آخر غير عالم اللغة. وعلى هذا الأساس، فإن السيميولوجي رغم اشتغاله في البداية على ماهيات غير لسانية منذور عاجلا أو آجلا للعثور على اللغة ("الحقيقية")ليس باعتبارها نموذجا وإنما بصفتها مكونا أيضا، وكبديل أو كمدلول. إلا أن هذه اللغة لم تعد شبيهة لغة اللسانيين : إنها لغة ثانية،ليست وحداتها هي (المفردات) monèmes أو الوحدات الصوتيةإنما أشطار خطابية أوسع تحيل إلى الأشياء أو فصول الحوادث التي تدل تحت اللغة دلالة لكن ليس بدونها أبدا"[[19]](#footnote-20)(64).

في إطار هذا التصور تهدف السيميولوجيا إلى فهم الطريقة التي تبلور بها الدلالة في مختلف الإنتاجات الاجتماعية (أشياء الاستهلاك، موضات، طقوس) المتجلية عبر مختلف أنطمة التواصل الجماهيري. وينتهي بارث إلى الإقرار بإمكانية قلب المقترح السوسيري في يوم ما : "ليست اللسانيات جزءا، ولو مفضلا، من علم العلامات العام،ولكن الجزءهو السيميولوجيا باعتبارها فرعا من اللسانيات: وبالضبطذلك القسم الذي سيتحملعلى عاتقه كبريات الوحدات الخطابية الدالة"[[20]](#footnote-21)(65).

بهذه الرؤية المنهجية، سينتاول رولان بارث بالدرس والتحليل نطام الموضة، وسيتساءل من جديد فيما إذا أمكن لنظام من الأشياء الاستغناء عن اللغة. هل يمكن أن يستغني اللباس عن اللغة التي تصفه تعلق عليه تهبه هبة غزيرة من الدوال والمدلولات ليشكل نظاما من الدلالات؟[[21]](#footnote-22)(66). تساؤل يقوده إلى النتيجة نفسها التي انتهى إليها في **المبادئ**،وهي ضرورة قلب الصياغة السوسيرية، والإقرار بأن السيميولوجيا هي التي تعد قسما من اللسانيات. ولئن كان هذا التأكيد يعكس قناعته بانغماس مختلف أشكال التعبير في السيرورة اللغوية ولا يمكن فصلها عنها، وأن عملية القلب مشروعة علميا إلا أن تصوره للمشروع السيميولوجي لن يخرج عن الإطار العام الذي وضع سوسير أسسه من خلال الدفع بالسيميولوجيا في اتجاهين. يكتسي الأول طابعا نطميا syntagmatique ويستمد وجوده من التحليل البنيوي للرسالة السردية. ويتسم الثاني بالطابعالاستبداليparadigmatique ويتحدد موضوعه بتصنيف الوحدات الإيحائية[[22]](#footnote-23)(67).

**المحاضرة الثالثة في مادة السيميولوجيا**

طلبة السنة الثالثة ليسانس

شعبة الأنثربولوجيا

شعبة الإعلام والاتصال

إن المتتبع للمسار العلمي لرولان بارث، سيلحظ من دون مشقة أن رؤيتة الجديدة ستسحب على الدراسة البنيوية للحكاية المنضوية تحت عدد ثيمي موسوم بـ **بحوث سيميولوجية** يضم مجموعة من الدراسات تصدت للحكاية والأسطورة والسينما. تحدث بارث عن التحليل البنيوي للحكاية وأقر بأن علامات الراوي محايثة للحكاية وفي متناول التحليل السيميولوجي[[23]](#footnote-24)(68). بينما أثار أ.ج.گريماس A.J.Greimas سؤالين، بالاستناد إلى كلود ليفي شتراوس الذي حدد وصف الأسطورة بثلاثة عناصر أساسية: البناء والشفرة والرسالة، يقترن الأول بالبحث عن الإجراءات الكفيلة بتأويل المكونات الثلاثة للأسطورة في إطار **النظرية الدلالية**، ويرتبط السؤال الثاني بالمكانة التي يمكن أن نسندها لكل واحد منها في تأويل الحكاية الأسطورية[[24]](#footnote-25)(69). أما كلود بريمون Claude Bremond، فإنه أدرج منطق الممكنات السردية في إطار الدراسة السيميولوجية للحكاية[[25]](#footnote-26)(70). وفي اعتقاد كريستيان ميتزChristian Metz الذي تبنى الرؤية البارثية، يمكن أن تقدم اللسانيات **العامة والسيميولوجيا العامة**، وحدهما فقط، للغة السينيمائية "النماذج" المنهجية المناسبة[[26]](#footnote-27)(71).

ومهما يكن من أمر، فإن هؤلاء الباحثين، سواء أشاروا صراحة أو ضمنيا إلى الخلفية السيميولوجية في دراساتهم، فإنهم خرجوا عن المألوف، ودخلوا عهدا جديدا بدأت تتشكل من خلاله الملامح العامة للمشهد العلمي في تلك الحقبة لتنذر بتحول جذري في المقاربة السيميولوجية للدلالة التي أعطاها رولان بارث دفعا قويا بدراسته المتصدرة **العدد السيميولوجي**. ونظرا لأهميتها التاريخية في تعميق الوعي بالمنظور السيميولوجي في مقاربة الحكاية، سنعرض للتوجهات البنيوية العامة لدراسة بارث التي ستتخذاللسانيات نموذجا ستسير على هديه لمقاربة الحكاية.

إن أولى المشكلات التي واجهت بارث وهو يتأمل في الحلول الممكنة الكفيلة بمقاربة الحكاية تتمثل في صياغة الحجج التي سيستدل بها للاستعانة باللسانيات، واتخاذها نمودجا للتحليل. فلا غرابة إذن في لجوئه إلى التحري عنالقواسم المشتركة بين الجملة والخطاب. وعلى الرغم من أن اللسانيات تشكل موضوعا مستقلا يتوقف عند الجملة ولا يتعداها، فإن بارث يؤكد على ضرورة دراسة الخطاب من منطلقاتها لوجود علاقة تماثلية بينه وبين الجملة، من جهة، ولأن نفس التنظيم الشكلي يضبط كل الأنساق السيميائية مهما اختلفت ماهياتها وأبعادها، من جهة أخرى: هكذا سيصبح الخطاب جملة كبيرة على غرار الجملة التي ستكون خطابا صغيرا. ووفق هذا التصور،وبالاعتماد على مستويات التحليل اللساني عند إميل بنفنيست[[27]](#footnote-28)(72)Emile Benveniste، يبدي بارث اقتناعه بأن اللسانيات منذ بدايتها ستدعم التحليل البنيوي بتصور حاسم يتمثل في المستويات التي تخضع لوصفها الجملة:الصوتي، والفونولوجي والنحوي والسياقي. تحكم هذه المستويات علاقة تراتبية لأن أي واحد منها لا يمكنه بمفرده أن ينتج المعنى. ولئن احتكم كل واحد منها إلى وحداته وترابطاتهالخاصة به مما يستتبع وصفا مستقلا، فإن كل وحدة تنتمي إلى مستوى معين لا تأخذ معنى إلا إذا تمكنت من الاندماج في مستوى أعلى: فالفونيم، بالرغم من قابليته للوصف، لا معنى له في حد ذاته، ولا يساهم في المعنى إلا إذا أدمج في الكلمة،وقس على هذا الكلمة التي عليها أن تندمح في الجملة. ويرى بارث أن نظرية المستويات التي صممها بنفنيست تزودنا بنوعين من العلاقات: الأولى توزيعية إذا وقعت في نفس المستوى، والثانية إدماجية إذا تم إدراكها بالانتقال من مستوى إلى آخر. وينتج عن ذلك أن العلاقات التوزيعية لا تكفي للإحاطة بالمعنى. ولقيادة التحليل البنيوي، يميز بارث بين الهيئات الوصفية وإدراجها ضمن منظور تراتبي(إدماجي).من هذه الزاوية، ومهما يكن عدد المستويات المقترحة، وكيفما يكن تعريفها، فلا يمكن التردد في اعتبار الحكاية تراتبية هيئات. ففهم الحكاية في رأي بارث ليس فقط متابعة مجرى القصة، بل يعني أيضا التعرف فيها على "الطوابق" وإسقاط التسلسلات الأفقية للخيط السردي على محور عمودي ضمنيا. أن تقرأ (أو تسمع) قصة لا يعني الانتقال من كلمة إلى أخرى فحسب، بل من مستوى إلى آخر. بهذه الطريقة، يدرج بارث نظرية المستويات للوقوف ليس فقط على العلاقة التي تقيمها المفردات مع بعضها البعض، بل على علاقاتها بالمستويات الأخرى.ولا سبيل للوصول إلى ذلك إلا باتخاذ المعنى مرتكزا أساسيا في تحديد مستويات وصف القصة التي لا تتجاوز الثلاثة في رأي بارث: **مستوى الوظائف**( بالمعنى الذي تحمله هذه الكلمة عند بروب وبريمون) **ومستوى "الأفعال"**(بالمعنى الذي تتضمنه هذه الكلمة عند گريماس لما يتحدث عن الشخصيات كعوامل) و**مستوى السرد**(الذي يعد إجمالا مستوى الخطاب عند تودوروف).

**المحاضرة الرابعة في مادة السيميولوجيا**

طلبة السنة الثالثة ليسانس

شعبة الأنثربولوجيا

شعبة الإعلام والاتصال

حتى نفهم التطوات العلمية اللاحقة في مجال البحث الدلالي، والتحولات التي عرفها المشهد السيميولوجي بأوروبا وانعكاساتها أيضا الإيجابية والسلبية، وبنسب متفاوتة على المشروع السيميولوجي العربي، سنستعين بالوثيقة التاريخية المهمة التي حررها كلود بريمون في أعقاب المؤتمر الدولي حول السيميائيات المنظم بكازميريزKazimierz ناد وصلة(بولونيا) من 12 إلى 18 سبتمبر 1966 تحت رعاية أكاديمية العلوم ببولونيا[[28]](#footnote-29)(79).

وقد حضرت اللقاء مجموعة من الباحثين نذكر منهم ستاينيتز W. Steinitz (جمهورية ألمانيا الديمقراطية)، سورينسين S.H.Sorensen (الدنمارك)، جاكوبسون R. Jakobson وشابيرو M.Shapiro(الولايات المتحدة الأمريكية)، أ.ج.گريماسA.J.Greimas (فرنسا)، روسي A.Rossi(إيطاليا)، مايينوا M.R.Mayenowa، زولكيوسكي S.Zolkiewski(بولونيا)، ليفي J. Lévy شيكوسلوفاكيا، شوميان S.K.Shaumian(الاتحاد السوفييتي).

ويشير كلود بريمونClaude Bremondفي التقرير الذي أعده حول هذا اللقاء العلمي الهام إلى أن الأربعين مداخلة التي قدمت لم تكن تطمح إلى استنفاد جميع التساؤلات الممكنة. ويقر الباحث بأن السيميولوجيا تخصص ناشئ ويقعفي تقاطع العديد من الأهداف العلمية. فلا غرابة أن تعترض سبيلهابعض الصعوبات المقترنة بتحديدها وتشكيل وحدتها بالنظر إلى مختلف فروع العلوم الإنسانية التي ألهمت بحوثها. إن أعمال مؤتمر كازميريز تحمل علامة هذا التنوع، والمصير المجهول الآتي من الصعوبة في تحديد العلاقة بين السيميولوجياواللسانيات. فالحديث عن أولوية اللسانيات وقيمتها المثلى في دراسة كل أنظمة العلامات **أمر غير وارد**. وهذا يعني استبعاد المنظور البارثي الذي اتخذ اللسانيات إطارا عاما لدراسة كل الأنظمة العلامية المعبر عنها باللسان وغير اللسان على نحو ما أثبتنا ذلك من خلال قراءة بارث للمشروع السوسيري وتقديمه بدائل منهجية تجعل من السيميولوجيا فرعا تابعا للسانيات.وظهرت بوادر هذا الاختلاف المنهجي في إصرار جاكوبسون وگريماس وزولكيوسكي على ضرورة الاحتفاظ باستقلالية السيميولوجيا بالنظر إلى اللسانيات حيث يبدو تقدمها مشروطا بتحقيق المشروع السوسيري للنظرية العامة للعلامات. وقد لاحظ بريمون أن تأثيرات أخرى مجاورة للسانيات أو غير لسانية ظلت قوية بالنظر إلى عدد من المحاضرات المقدمة المرتبطة تقليديا في موضوعها بمقاربة منطقية أو جمالية، فأثارت مسألة العلاقة بين العلوم المتنوعة المعنية بدراسة الرسائل. ولئن حققت السيميولوجيا المكاسب من المواجهة بين المنطق واللسانيات على نحو ما صممها بادوتشيفا E.V.Padutcheva(مقارنة اللغات الطبيعية بلغات المنطق الرياضي) أو مانفريد بيرويش Manfred Bierwisch (العلاقة بين اللغات الطبيعية واللغات الاصطناعية)، فإن الأمر لا يتعلق باختزال بسيط لهذه التخصصات، من واحد إلى آخر. وهذا يصدق أيضا على العديد من المسائل الجمالية التي يمكن أن تجدد بالمعالجة السيميولوجية ولكن حدود الاختصاص بينهما تبقى غير مؤكدة. بينما يبرز عرض ميير شابيرو Meyer Shapiro ، مثلا، وجود مدلولات رمزية على مستوى العناصر لعمل تصويري أو رسم( الخلفية، الإطار)، فإن بوريبسكي M.Porebski يميل إلى إنكار تجزئة اللوحة إلى علامات إيقونية مميزة: رسالة فاقدة لشفرة قارة، يتوقف بناء العمل الفني التشكيلي فقط على النشاط الفردي لمبدعه، من جهة، والمشاهد، من جهة أخرى. وفي هذا السياق لاحظ بريمون أن الرعاية اللسانية نفسها قد تبدو أحيانا مثيرة للقلقحيث أن قلة من اللسانيين فقط أبدوا رغبتهم(في) أو قدرتهم على مفارقة موضوع دراساتهم المركزي المعتاد-اللغات الطبيعية- والتفكير في بسط منهجهم على كل حقل أنظمة العلامات أو تحويله إلى نظام خاص. وعلى هذا الأساس، أشار بريمون إلى أن المجالات الوحيدة التي اكتُشفت حقيقة تقع بجوار اللغة اللفظية المباشر الأقرب إلى تمثيل امتدادات اللسانيات منها إلى الأنظمة السيميائية المستقلة. يتعلق الأمر بصفة أساسية ببحوث حول الأسلوب والبلاغة والشعر: وفي هذا المضمار، قدمت آنَّا ويرزبيكا Anna Wierzbicka ومايينوا R.Mayenowaمداخلةتتناول العبارات المقتبسة، وتصدى آلدو روسي Aldo Rossiللرمز في الأدب الإيطالي القروسطي، وطبق تزفيطان طودوروف Tzvetan Todorov مقولات التقرييري والإنشائي على نظرية الحكاية الأدبية، كما سعى ريفزين I.O.Revzin إلى بسط نفوذ النحو التوليدي بواسطة القواعد الإضافية باتجاه دراسة الأشكال الأسلوبية والمنظومة(شعرا) للنص. ويرى بريمون أن مداخلة جيري ليفي Jiri Levyتعبر عن جهد أصيل بذله في تطبيق نظرية التلاعب على مسألة الإبداع الشعري.

وانتبه بريمون إلى أننا إذا انتقلنا إلى أنظمة التبليغ التي لا تأتي مباشرة من اللسان، فستبدو نقاطها المعلمية مهمةعلى ندرتها على غرار العرض الذيقدمه كريستيان ميتز Christian Metz حول مسائل التقرير في أفلام الخيال، وسيبوك T.S.Sebeok حول السيميائية الحيوانية، وسيفيان T.V.Syvianالذي عرضللبطاقة وطقوس الآداب. كما عالج ميير شابيروMeyer Shapiro دور العناصر اللاصورية في تشكيل الصورة- العلامة، وإيفانوف Ivanov وطوبوروف Toporov إعادة بناء أسطورة بروتوسلافية انطلاقا من التحليل الإيتيمولوجي لأسماء العلم.

وإلى جانب هذه البحوث، أعلن الوفد الفرنسي عن مشروع بحث حول سيميولوجيا الإيماءة. وألمح بريمون في النهاية إلى غياب رويت N.Ruwetالذي حرم المؤتمر من الانتفاع بالتأملات حول مسألة هامة مقترنة بالعلاقة بين الموسيقى والسيميولوجيا.

وفي أثناء تقييمه لفعاليات المؤتمر، لاحظ بريمون أن حقل البحوث السيميولوجية لم يحظ بتغطية شاملة. ومع ذلك، احتفظ المستوى المثالي لبعض هذه الوجوه بتأثيره الإيجابي على مجرى اللقاء. وقد اتضح على ضوئها رهان المناقشة النظرية التي أثارت أسئلة حول حدود الاختصاص السيميولوجي؛ ومن ضمنها وصف گريماس الكون العلمي والثقافة بصفة عامة باعتبارهما"تراتبية سيميائيات تخضعلنظرية عامة، كفيلة بالتحليل والتجاوز"، "شرط ومشروع أنسية جديدة". وأثار هذا الموقف تأويلات بعض الباحثين، وتحديدا جاكوبسون R.Jakobsonالذي اعتبرهمتضمنا نوعا من "إمبريالية" السيميولوجيا واللسانيات الممارسة بالتتابع على العلم بعامة،ومختلف السيميائيات بخاصة. أما العرض النهائي لـ زولكوسكي S.Zolkiewski المخصص لتحليل دقيق للأطروحات البنيوية، من المنظور الماركسي، فإنه أفضى إلى تحفظات مماثلة استهدفت هذه المرة على نحو أدق مؤلف ليفي ستروسCl.Lévi-Strauss. ويرى كلود بريمون أن من أهم الدروس المستخلصة من هذا المؤتمر ضرورة التعجيل، على صعيد التعاون وتبادل المعلومات،بفكالعزلة عن الباحثين سواء على المستوى الفردي أو على مستوى المناطق اللغوية أوالمدارس الفكرية. قبل أن يفترق المساهمون في المؤتمر أقروا مشروع الجمعية الدولية للسيميائيات. وأنشئت لجنة تنظيمية يكون مقر سيكريتيريتها فرسوفيا Varsovie تحت إدارة ستيفان زولكيوسكي M.Stefan.Zolkiewski .وقد مثل فرنسا رولان بارث، إيميل بنفنيست، جوليان گريماس وليفي ستروس. وأول تظاهرة بادرت ببرمجتها الجمعية تنظيم مؤتمر دولي حول السيميائيات حدد بالفترة الممتدة من 25 أوت إلى 1 سبتمبر 1968. وبخصوص إنشاء هيئة للتعبير تسمح بالمناقشة المشفوعة بالبحوث، تم التوصل إلى حل لهذه المشكلة بإلحاق قسم جديد يحمل عنوان بحوث سيميائيةبـ مجلة الإعلام حول العلوم الاجتماعية التي ترعاها اليونيسكو. وتكفلت لجنة خاصة متكونة من جوليان گريماس(فرنسا)، لوتمان J.M.Lotman (الاتحاد السوفييتي) وسيبوك T.S.Sebeok(الولايات المتحدة الأمريكية) وسكالموسكي W.Skalmowski(بولونيا) بتنظيم هذا القسم.

1. [↑](#footnote-ref-2)
2. [↑](#footnote-ref-3)
3. [↑](#footnote-ref-4)
4. [↑](#footnote-ref-5)
5. [↑](#footnote-ref-6)
6. [↑](#footnote-ref-7)
7. [↑](#footnote-ref-8)
8. [↑](#footnote-ref-9)
9. [↑](#footnote-ref-10)
10. [↑](#footnote-ref-11)
11. [↑](#footnote-ref-12)
12. [↑](#footnote-ref-13)
13. [↑](#footnote-ref-14)
14. [↑](#footnote-ref-15)
15. [↑](#footnote-ref-16)
16. [↑](#footnote-ref-17)
17. [↑](#footnote-ref-18)
18. [↑](#footnote-ref-19)
19. [↑](#footnote-ref-20)
20. [↑](#footnote-ref-21)
21. [↑](#footnote-ref-22)
22. [↑](#footnote-ref-23)
23. [↑](#footnote-ref-24)
24. [↑](#footnote-ref-25)
25. [↑](#footnote-ref-26)
26. [↑](#footnote-ref-27)
27. [↑](#footnote-ref-28)
28. [↑](#footnote-ref-29)